مكانة المتصوفة في دولة الموحدين – أبو العباس السبتي نموذجا–

أ. عمارة محمد

جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس

تمهيد:

لقد قامت دولة الموحدين على اساس دعوة دينية، وعملت على مناهضة خصومها المرابطين من خلال تكفيرهم ومقاتلتهم واسقاط دولتهم. ومع تأسيس الدولة الجديدة عمل حكامها المتتابعون على التصدي لكل من حاول الخروج عليهم فكريا وعسكريا، واستعان الموحدون بالمتصوفة في أحيان كثيرة لحشد الدعم والتأييد ولاضفاء صبغة الشرعية على ممارساتهم كما حصل مع مترجمنا أبي العباس السبتي. ويحسن بنا في البداية الكلام عن تعريف التصوف ودخوله الى البلاد المغربية.

تعريف التصوف واختلاف الناس في ذلك:

إن مفهوم التصوف اللغوي والاصطلاحي يظل من الأمور الغامضة نظرا لصعوبة الاشتقاق اللغوي وتعدد التعريفات والمفاهيم .

كما ترجع الصعوبة أيضا إلى تداول لفظة التصوف بين الديانات المختلفة والحضارات الانسانية على مر العصور.ثم إن التصوف لم يرد في اللغة العربية ولا يوجد له أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يُجمع الباحثون على تعريف شامل رغم تعدد محاولاتهم والتي لم تخرج على كثرتها وتنوعها عن احتمالات فقط.[1]

ويُعد التصوف من العلوم الشرعية الحادثة المستجدة في الإسلام، ويعود أصل ذلك" أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة

والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف".[2]

لقد ظهرت بذور التصوف في سماء الفكر الاسلامي في بداية القرن الثاني الهجري على هيئة نزعات شديدة من الزهد في متاع وزخرف الدنيا نتيجة لما وقع فيه العالم الاسلامي وقتئذ من حوادث شديدة اثرت تأثيرا كبيرا في جميع جوانب الحياة.

وإن كان بعض الباحثين يُرجع ظهور التصوف إلى عاملين:

العامل الأول:

الذنوب التي يقترفها العاصي المسلم ومحاولته محوها بطلب المغفرة من ربه.

العامل الثاني:

يتمثل في الرعب الشديد الذي ينتاب العصاة من اليوم الآخر وما أعد فيه من عذاب شديد لهم مما يجعلهم يطلبون التوبة من خالقهم والزهد في الحياة.[3]

تطور التصوف قبل عهد الموحدين:

دخل التصوف الى المغرب قبل عهد الموحدين لعدة عوامل، أهمها اندلاع الحروب الصليبية شرقا وغربا ومن أخطرها حركة الاسترداد الاسبانية التي ادت الى هجرة العديد من الاندلسيين الى اقطار شمال افريقيا، ومن بينهم العديد من الفقهاء والأدباء والصوفية.[4]

وقد نتج عن ذلك تكاثر العلاقات بين اقطار المغرب الاسلامي وبلاد المشرق العربي، ولا سيما في المجال الثقافي والفكري، مماأدى الى انتشار آراء الاشاعرة الاعتقادية في المغرب الاسلامي، رغم مناهضة فقهاء دولة المرابطين لمؤيديها، وسمح بذيوع مؤلفات أبي حامد الغزالي وغيره في أقطار المغرب الاسلامي

تترجم ما سبق بظهور مدارس صوفية متعددة **لا سيما في :**

التصوف الفلسفي:

نشأ هذا النوع من التصوف بسبب الاهتمام الذي أظهره الصوفية بعلوم المكاشفات، وذلك سعيا وراء معرفة الله واكتساب علومه، والوقوف على حكمته وأسراره مع الاطلاع على حقائق الموجودات.

وقد ظهرت مجموعة نظريات صوفية فلسفية متباينة في الكيفية متحدة في الهدف منذ القرن الثالث للهجرة.

أدت عناية متصوفة هذا التيار بعلوم المكاشفة وجعلها علوما اصطلاحية ،وترتيب الموجودات على ما انكشف لهم الى أن" أصبح علم التصوف عندهم يختص في البحث عن طريق العلوم المصطلح عليها المؤدية إلى كشف أسرار الملكوت وحكمته، وإظهار حقائق الموجودات عن طريق العقل، فإذا عجزوا أو طولبوا بالبرهنة عليها لجأوا إلى الوجدان أي المجاهدة النفسية ".

لقد كان توجه أصحاب هذا النوع من التصوف توجها فلسفيا محضا، و ظهر أثر الأندلسيين فيه بوضوح على أرض المغرب الأوسط **خاصة في:**

– الاتجاه القائل بالوحدة المطلقة:

ويتلخص معنى هذا الاتجاه: أن الله هو مجموع ما ظهر وما بطن ولا شيء سوى ذلك، وكل ما تراه في الوجود ما هو إلا أوهام يعتقدها الضمير، والإنسان مؤلف من حق وباطل، فإذا سقط البـاطـل المتسبب

الوحيد في هذه الأوهام بأنواع المجاهدات، لم يبق سوى الحق الذي يحل في ذات الإنسان.[5]

التصوف الاخلاقي:

وهو الذي امتاز بالتمسك بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وجميل الاخلاق والصفات التي كان عليها سلف الامة الصالح،وترك الخوض في النظريات الفلسفية المخالفة للعقيدة الاسلامية الصحيحة ،لا سيما نظريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد. **ومن أشهر رجاله في المشرق العربي:**

- أبو عبد الله المحاسبي المتوفى في سنة (243 هـ / 857 م).
- أبو طالب المكي المتوفى في سنة (386 هـ / 996 م).
- أبو حامد الغزالي المتوفى في سنة (505 هـ / 1111 م).

ومن أشهر رجاله في المغرب:

- أبو الحسن الأشوني، علي بن محمد بن محمد بن شعيب (ت 537 هـ / 1142 م).[6]
- أبو عبد الله الدقاق (ت أواسط ق 6 هـ / 12 م).[7]
- أبو يعزى يلنور بن ميمون الهزميري (ت 572 هـ / 1176 م).[8]

العلاقة التي جمعت المتصوفة بالسلطة الموحدية:

لقد لعبت هذه الشريحة دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية بالمنطقة،فقد كانت الأعمال التي قام بها المتصوفة سببا في التفاف شرائح المجتمع حولهم، فمنهم من كان يحسن الى الايتام على وجه خاص ومنهم من كان يسهم بفاعلية في تزويج المحتاجين وتجهيز العرائس والسعي وراء اغناء المعوزين ومما زاد من التفاف الناس حولهم أخبار كراماتهم والخوارق وحوادث اجابة الدعاء.[9]

وتأييدهم لهم وإيماناهم المطلق بكراماتهم وما منحهم الله من ميزات خاصة دونا عن باقي خلقه.وعقلية الايمان بالغيبيات وزيارة الاولياء الصالحين لم تكن سائدة عند المغاربة في فترة العصور الوسطى فقط.حيث بقيت مهم حتى

ايامنا هذه،على الرغم من تطور العلم ووسائله، الا اننا نجد مقابر الاولياء الصالحين لا زالت تقصد في أيامنا هذه ولنفس الغرض من التبرك والدعوة. حتى أن بعض الناس يحلف باسم الاولياء الصالحين ومنهم أبو مدين شعيب.[10]

كما كان تعامل حكام الموحدين مع طبقة الموحدين دليلا رسميا على الاعتراف بهم نظرا الى تكوينهم الديني الوثيق[11] ، بالإضافة الى الدور الذي أداه المتصوفة في الحياة الاجتماعية في العدوتين، اذ أنهم انتشروا ونشروا افكارهم وممارساتهم التي حببت الناس اليهم وحببتهم الى الناس بما في ذلك السلطة.[12]

لكن العلاقة حقيقة لم تكن دائما في وفاق وسلام بين الطرفين، بل شهدت تجاذبات وتوترات على خلفيات عقدية تارة وسياسية تارة أخرى، في ظل الشعبية الكبيرة التي تمتع بها المتصوفة بين الناس، ما قد يجعل شرعية الحكام على المحك لا سيما في زمن الثورات والتمرد.[13]

وقد سلك حكام الموحدين سياسات متنوعة في سبيل جذب واحتواء أعلام التيار الصوفي، وتجنب الاصطدام مع أعلامه وزعمائه، واستمالتهم بالمقابل في الصراع ضد تيار المالكية الخصم المشترك لهما.

وقد ذكر لنا المراكشي طرفا من تلك السياسة المناوئة للمذهب المالكي، إذ يذكر سعي أبي يعقوب الموحدي وراء محو المذهب والتضييق على العلماء وطلبة الحديث من خلال جملة قرارات خطيرة من اهمها احراق كتب المذهب كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن ابي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب...حتى أن المراكشي يشهد أنه رأى وهو بفاس بالأحمال من الكتب يؤتى بها ويُطلق فيها النار. [14]

هذه السياسة أثمرت الى حد كبير في استقطاب المتصوفة وتحييدهم على الاقل، وكثر توافدهم على العاصمة مراكش، فقد أورد التادلي مثلا في كتابه "

التشوف "، ستة وخمسين ترجمة لأعلام التيار الصوفي ممن وفدوا على العاصمة مراكش مبين اصل مئتين وسبع وسبعين ترجمة في الكتاب، أين شارك هؤلاء الى جانب السلطة الموحدية في مشروعاتها الجهادية.[15]

ومن أبرز الامثلة الدالة على نجاح هذه السياسة وفود أحد أهم اعلام التصوف في المغرب والاندلس يومئذ، ونعني به أبا العباس السبتي الذي سنحاول من خلال هذا المقال تتبع واستقصاء علاقة الموحدين به.

اسمه ونسبه ومولده:

هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي،مولده بسبتة عام أربعة وعشرين وخمسمائة. نزل مراكش عام أحد وستمائة، وذلك في يوم الاثنين الثالث من شهر جمادى الاخرة ودفن بباب تاغزوت.[16]

وصفه التادلي بأنه: (قد أعطي بسطة في اللسان وقدرة على الكلام، لا يناظره أحد إلا أفحمه، وكان سريع الجواب، وكان القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه عتيدة حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب وبسحر العامة والخاصة ببيانه. يأتيه من يأتيه للإنكار عليه فما ينصرف عنه الا وقد سلم له وانقاد بقوله...).[17]

ثم ذكر التادلي ما حصل من الاختلاف الكبير بين الناس في عقيدة ومنهج أبي العباس، واستمر هذا الاختلاف الى ما بعد وفاته ،بين من يصححه وبين من يبدعه وبين من يرميه بالسحر بل وحتى الكفر.[18]

بين المنصور وأبي العباس:

كان الخليفة يعقوب المنصور (580 هـ - 595 هـ / 1184 م – 1198 م) نسخة من أبيه، متسما بالعلم والجهاد والآثار العظيمة والمناقب الشريف [19] ،" وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين واهل علم الحديث صيت وقامت لهم

سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب اليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة ".[20]

وقد اتخذ الخليفة اجراءات تدل على تأثره بأخلاق الصوفية مثل محاربته لمظاهر الترف كقطع لباس الغالي من الحرير واراقة الخمر وكسر الات اللهو والطرب ومطاردة المغنين.[21] وفي وصية موته حذر السادة والاشياخ من " الطبل فإنه مما يخف الادمغة ويحول العقول ".[22]

و تبعا لتلك السياسة الموحدية الناجحة اتجاه أعلام التيار الصوفي، انتقل ابو العباس من سبتة الى مراكش العاصمة بناء على طلب المنصور **ورغبته لسببين:**

- تلبية حاجيات ذاتية للخليفة الموحدي المنصور تتلخص في المساعدة على تجاوز مخلفات اغتيال المنصور لأخيه أبي يحي في سنة 585 هـ / 1189 م لما دعا الى نفسه...[23]

- حاجة العاصمة مراكش الى بركة الشيخ.[24]

وهناك من الشواهد ما يدل على نجاح سياسة الموحدية في احتواء واستقطاب مع استقرار أعلام الصوفية، فإن أبا العباس بعد أن اختار المكث في العاصمة مراكش في كنف الخليفة، اتجهت همته الى التعليم الرسمي.[25]

وسكن في حومة مخزنية جديدة هي حومة أكادي، وصارت له صلة وصحبة وثيقة مع صاحب دار الأشراف بالمدينة بكر بن يوسف الكومي[26] ، و خصصت السلطة لابي العباس واردا ماليا من بيت مال المسلمين ينفقه على الطلبة الغرباء الواردين مراكش[27]. ولعل أكثر ما يستوجب الوقوف سماح السلطة الموحدية لأبي العباس القيام على الناس في السوق بسوطه يذكر الناس ويضربهم على ترك الصلاة في أوقاتها.[28]

وشهدت فترة مكث أبي العباس بمراكش العاصمة سنة 540 هـ / 1146 م شيوعا لكراماته[29] ، ما أدى بالخليفة المنصور أن يحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس ودارا للسكنى وأصبحت له المكانة والحظوة لدى الخليفة، ولما احتاج الناس للسقيا والمطر بعد جفاف وفاقة، خرج كل من في المدينة حتى اليهود والنصارى والبهائم والنسوان والولدان يتقدمهم الخليفة ، وأمام تأخر الغيث أمر المنصور أبا العباس المشاركة في الاستسقاء. فرأى الشيخ رأيه المعتاد عنه وهو ضرورة الصدقة والدفع عن المحتاجين والمعسرين استجلابا لرحمة الله تعالى، واشار على الخليفة بذاك الذي استجاب له، باخراج ما تدخره الدولة من الطعام والثياب ووزع على الفقراء والمعوزين، واستمر التوزيع خلال ثلاثة ايام فعم العطاء بالمدينة.[30]

من خلال ما تقدم عرضه تبين لنا نجاح سياسة الموحدين في احيان كثيرة في استقطاب أعلام التيار الصوفي واحتوائهم في العاصمة مراكش، ونحن نجزم أنه لو ترك الاختيار لأولئك الشخصيات لرغبوا عن البقاء بالمدينة الى البوادي الاهدأ والاجمع للذهن والفكر والتبتل.

ويمكن القول أخيرا أن التقارب الذي حدث بين السلطة الموحدية والمتصوفة وخاصة زمن المنصور مرده إلى **الأسباب التالية:**

* مبادرة السلطة الموحدية ورغبتها الحثيثة في احتواء الصوفية لا سيما أعلامهم.

* شعبية المتصوفة لدى المجتمع المغربي، وهو ما حاولت السلطة السيطرة عليه وتحجيمه واقتسامه لدى قلوب العامة من الناس.

* استخدام هؤلاء الأعلام في انجاح سياسة البلاط الموحدي وتشتييت الناس من حول الأعداء ورميهم بالكفر والزندقة.

* رفع الدولة الموحدية لعلم الجهاد ونصرة المسلمين جعل المتصوفة يشاركون في الصفوف الأولى كما اصطحب المنصور في معركة الأرك الصلحاء واعتبرهم جنده الحقيقيين.

* الاحترام الذي حظي به المتصوفة في كنف الموحدين لا سيما المنصور من خلال عيادتهم والسؤال والوصية بهم، واكرامهم وهو ما تترجم من التفاف أعلامهم حوله وحول سياسته كابي العباس السبتي مثلا.

الهوامش:

1 – لمزيد التفصيل يُراجع،أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين،تحقيق، بدوي طبانة،مكتبة ومطبعة، كرياطه فوترا،أندونيسيا، ج 1 ، مقدمة التحقيق، ص ص 1 – 20، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن محمد ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل،تحقيق، محمد مطيع الحافظ،الطبعة الأولى، 1417 هـ = 1996 م،ص ص 37 – 74 ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تلبيس ابليس، تحقيق، خالد بن محمد بن عثمان، مكتبة الصفا،القاهرة،الطبعة الأولى، 1422 هـ – 2001 م،ص ص 180 – 182،عبد الحكيم عبد الغني قاسم،المذاهب الصوفية ومدارسها،مكتبة مدبولي، القاهرة،الطبعة الثانية، 1999، ص ص 21 – 25، الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين / 12 و 13 الميلاديين،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة،2004، ص 34 – 35 ،الهامش، أبو عبد العزيز إدريس محمود إدريس،مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية،مكتبة الرُشد،الرياض،الطبعة الثانية، 1426 هـ – 2005 م، مج 1،ص ص 25 – 29، الحسني، مرجع سابق، ص 8 – 9، أحمد عبيدلي،الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين، دراسة موضوعاتية فنية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب

المغربي القديم،إشراف، محمد الأخضر الزاوي، قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية،1425 – 1426 هـ / 2004 – 2005 م ، المقدمة

2 – أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الإشبيلي ابن خلدون،المقدمة، دار الفكر، بيروت، 1422 – 2002.، ص 449.

3 – عبد الحكيم ، مرجع سابق،ص 21، بونابي، مرجع سابق، ص ص 36-38،عبيدلي، مرجع سابق، ص 38.

4 – راجع المزيد عند بونابي، مرجع سابق، ص ص 45 – 101.

5 – انظر للمزيد محمد عمارة ، هجرة الاندلسيين الى بلاد المغرب الاوسط خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ودورهم الحضاري، اشراف،محمد بن معمر، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية،قسم الحضارة الاسلامية،كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية،وهران، السنة الجامعية،2013 – 2014 م، ص ص 144 – 147.

6 – أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول،تحقيق، احسان عباس، رقم 655، ص ص 388 – 391.

7 – أبو العباس أحمد الخطيب بن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير،اعتنى به ، محمد الفاسي،جامعة محمد الخامس، كلية الآداب،1965، ص27

8 – حاجيات عبد الحميد،تطور الفكر الاسلامي بالمغرب الاوسط على عهد الموحدين،مجلة عصور الجديدة،دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران،العدد 5،1433 هـ / 212 م، ص 54.

9 - انظر وصف التادلي لأبي العباس مثلا ، أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي ابن الزيات،التشوف الى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق، أحمد فؤاد، الطبعة الثانية، 1997، منشورات كلية الآداب، الرباط،ص 452و ص 461

10- شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في المغرب الاسلامي في عهد الموحدين، (524 – 667 هـ) - (1126 – 1268 م)،اشراف، عبد العزيز محمود لعرج،مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي الوسيط،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، السنة الجامعية، 2007 – 2008، ص 101 .

11 - بونابي،مرجع سابق، ص 198 – 199.

12 - انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق، محمد سعيد العريان،لجنة احياء التراث الاسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، 1963، ص 269 ، و ص ص309 – 316.

13 - راجع امثلة عن ذلك، مصطفى مغزاوي، التحولات المذهبية في المغرب الاسلامي والاندلس خلال العصر الموحدي (6 هـ - 8 هـ / 11 – 13 م)، اشراف، خالد كبير علال،أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط،المدرسة العليا للاساتذة، بوزريعة، السنة الجامعية،2011 – 2012 م، ص ص 445 – 518،بونابي،مرجع سابق، ص ص 200 – 202.

14 – المراكشي، مصدر سابق، ص ص 355 – 356 ،مصطفى مغراوي، مرجع سابق،ص 435 – 436.

15 – نوارة مرجع سابق، ص 100، كما ذكر ابن ابي زرع خروج الفقهاء والصلحاء في جيش الارك،علي بن أبي زرع الفاسي، النيس المطرب بروض

القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط، 1972، ص 222.

16 - التادلي،مصدر سابق، ص 451 – 452.

17 - المصدر السابق نفسه ،ص 451.

18 – المصدر السابق نفسه، ص ص 453 – 477.

19 – يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية ، الجزائر، 1400 – 1980، ج 1، ص 102، وص 171.

20 – المراكشي، مصدر سابق، ص 354، ابن أبي زرع، ص 217 و ص 225، ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق مجموعة من الأساتذة،الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،الطعة الأولى، 1406 – 1985، ص 170.

21- ابن عذارى،مصدر سابق، ص 173 - 174.

22 - المصدر السابق نفسه ، ص 231.

23 – انظر لمزيد التفصيل: المراكشي ، مصدر سابق،ص 352، ابن عذارى، مصدر سابق، ص ص 198 – 200، وص 233 – 234

24 - المغراوي، مرجع سابق، ص 440.

25 - التادلي،مصدر سابق، ص 455.

26 - المصدر السابق نفسه ، ص 469.

27 - المصدر السابق نفسه ، ص 455.

28 – المصدر السابق، ص 455.

29 – وقد وقفت على مقتطفات من مخطوطة نادرة ملك للأستاذ عبد اللطيف بوطيب المكناسي بارك الله في عمره بعنوان " كرامات ابي العباس السبتي " وهي ضمن ثلاث أو أربع مخطوطات تتكلم عن صلحاء ليبيا وتونس ، وأكد لي أني أول من يطلع عليها وسأكتب عنها انشاء الله خلال الايام القادمة بإذنه تعالى، راجع الملحق.

30 – التادلي، مصدر سابق، ص ص 466 – 470،مغراوي، مرجع سابق،ص 440 – 441.

الملاحق

الملحق الأول: الورقة الاولى من مجموع مخطوط عن صلحاء ليبيا وتونس ومناقب أبي العباس السبتي، كتب بتونس في سنة 1217 هـ

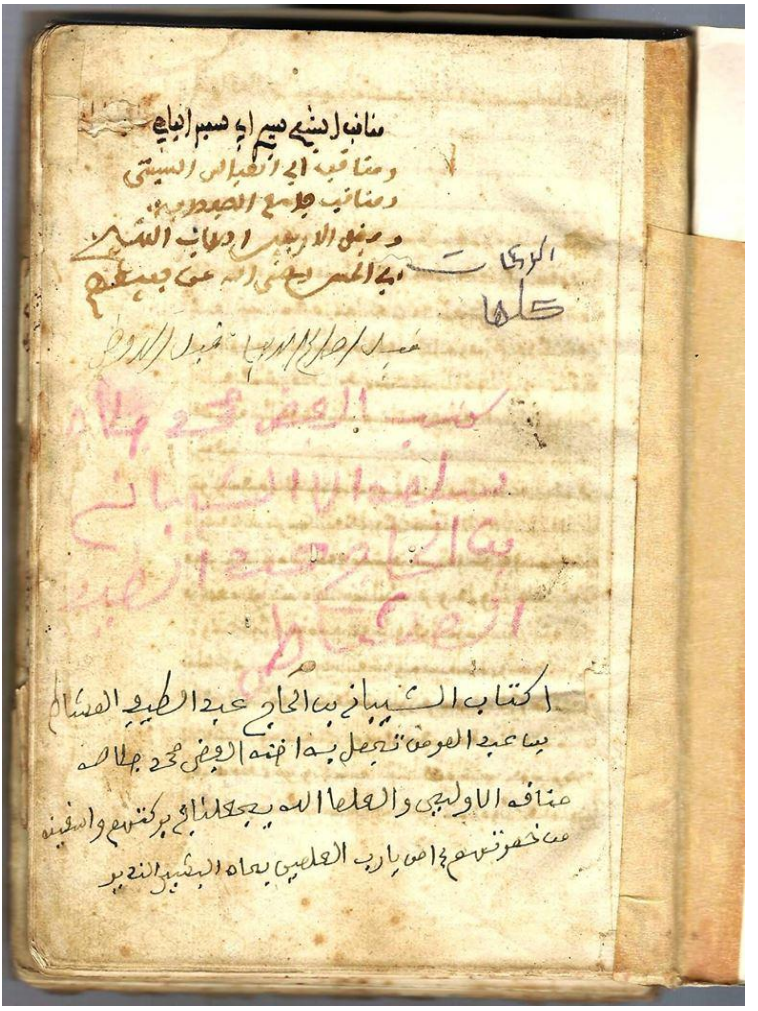

الملحق الثاني: الورقة الاولى من مخطوط مناقب أبي العباس السبتي

الملحق الثالث: الورقة الاخيرة من مخطوط مناقب أبي العباس